مـــطـــــارق الارهـــــاب في ســـــامـــــراء

طـريق المخـاطـر بين الكـاظمية وسـامـراء

المدينة التي أغلقت أبوابها

صافي الياسري

الطريق إلى سامراء يبدأ من بوابة بغداد الشمالية في مدينة الكاظمية ، ويحمل سكان الكاظمية ، لهذه البوابة وما حولها ذكريات مريرة ، فقد اخرجوا مجموعة من السجناء والجثث من زنزانة تحت البوابة ومن سراديب تحت معسكرات ما كان يدعى بمنظمة (فدائيي صدام) ومواقع الحرس الجمهوري وبخاصة (فوج الطوارئ) وهذه كلها كانت معدة لمواجهة العراقيين ولحماية النظام وحسب.ويمكن الصعود إلى سامراء من طريقين كلاهما ملئ بالمخاطر فالطريق الزراعي يبدأ من شارع المحيط في الكاظمية ويمر بمزارع المسؤولين ودور استراحتهم الخاصة على شاطئ دجلة في مقاطعة التاجيات ويمتد حتى (الطارمية) ويعبر مزارع (ساجدة خير اللّه) في منطقة الشيخ جميل ، ثم يعبر بساتين الضلوعية ومزارعها التي تعد جنائن العراق التي لا تضاهيها جنائن ، وهي اليوم بوابة الجحيم إلى سامراء ، بدلاً من تلك البوابة الخضراء المزدهرة.

وتبعد سامراء عن بوابة بغداد ١١٨ كيلومتراً، تقطع اليها غالباً عبر الطريق الستراتيجي الممتد إلى مدينة الموصل ثم إلى تركيا، ويمر هذا الطريق بمدن عديدة لها وقائعها الخاصة في التاريخ العراقي القديم والمعاصر، ولكل منها ذاكرتها. فالتاجي ومعسكره الشهير له ذكرياته، ومدينة المشاهدة لها خصوصيتها، والدجيل لها قضيتها التي تنافح عنها اليوم في وقائع محاكمة الرئيس المخلوع (صدام)، والطارمية والضلوعية.اصبحتا قواعد يتسلل منها المسلحون لضرب المعسكرات والقواعد الاميركية المنشورة على الطريق الستراتيجي المذكور، وقواعد يتسلل منها الارهابيون والانتحاريون ويأوي اليها الغرباء القادمون مغسولو الادمغة، وصناع المتفجرات وخبراء السيارات الملغومة، واشتات اخرى من محترفي الجريمة.

وسامراء واحدة من المدن التي لم تتعرض خلال الحرب لقصف صاروخي ولم تجر فيها مواجهات عسكرية كما ان المؤسسات والدوائر الرسمية فيها لم تتعرض هي الاخرى لعمليات سلب ونهب كما جرى في بغداد وعدد من المحافظات العراقية، وحافظت المدينة على هدوئها مدة طويلة من الزمن، ولم تجر فيها مواجهات مع الاميركان الذين اتخذوا من بعض دوائر الدولة ومركز الشرطة مواقع لانطلاق دوريات "الهمر" والدبابات في المدينة، حتى وقعت (حادثة الزفاف) كما يدعوها سكان المدينة في تشرين الاول من عام ٢٠٠٣، فقد اعتاد سكان المدينة والعشائر التي تسكن من حولها، على اطلاق النار في مناسباتهم الخاصة، وفي مناسبة الزفاف هذه، كان عدد من الشبان في شاحنة صغيرة مكشوفة يطلقون النار في الهواء وهم يرافقون موكب الزفاف الذي تحول فيما بعد إلى موكب دموي اثناء مروره قرب مركز شرطة المدينة الذي كانت القوات الاميركية تتخذه مأوى لشرطتها العسكرية M.P، ويؤكد سكان المدينة ان اطلاق النار كان احتفالياً، بينما اكد يومها ضباط القوة الاميركية في مركز الشرطة انه كان مقصوداً وان الرصاص كان موجهاً إلى موقع القوة، وان هذا هو السبب الحقيقي الذي دفع الاميركان للرد وقتلوا وجرحوا عدداً من المشاركين في الموكب ومن بينهم اطفال ونساء، لتأخذ علاقة السكان بالقوات الاميركية منحى آخر فيه الكثير من عدم الثقة الذي جيرته القوى المتبطلة التي لجأت إلى عشائرها في المدينة، لمصلحتها وحركتها باتجاه تفجير الاوضاع وزعزعة الامن، بل الاستيلاء على المدينة، بمشاركة ومباركة الاتجاهات الدينية ذات التوجه الطائفي التكفيري، مستغلين الحماية التي توفرها لهم عشائرهم، والمناخ الديني الخاص بالمدينة، ليبدأ تشكيل زمر وكتائب مسلحة، وتحول ما كان يحدث في الايام التي تلت حادثة الزفاف من حوادث فردية غير مؤثرة، إلى اعمال عسكرية ومواجهات دامية استهدفت الاميركان والشرطة والحرس الوطني المتشكل حديثاً ومواطنين مدنيين ابرياء وموظفين وعوائل من طوائف اخرى كانت تسكن المدينة.

ومع ان هذه المواجهات في البدء كانت تجري بعيداً عن الاحياء والتجمعات السكنية وبخاصة قريباً وحول ضريح الامام علي الهادي والاسواق، الا انها امتدت إلى هذه الاحياء وفجر الاميركان احدى السيارات المفخخة قريباً من احد ابواب ضريح الامام علي الهادي وتعرضت وما زالت تتعرض المحال التجارية القريبة من الضريح حيث السوق المركزي للمدينة إلى عمليات قصف واطلاق نار عشوائية ذهب ضحيتها العديد من المدنيين الابرياء، ومنهم عدد من (الزوار) الايرانيين.

وانتقلت المواجهات من شارع الحولي، وهي التسمية المحلية للشارع المحيط بالمدينة القديمة، إلى مركزها وإلى احيائها السكنية، فالمسلحون كانوا يحتمون بدور المواطنين وبحسبهم ان الاميركان سيتورعون عن قصفها، او انهم كانوا يريدون للاميركان قصف هذه الدور، ليتصاعد العداء والحقد في نفوس السكان.

وخلال الشهر الماضي تزايدت نشاطات المسلحين داخل المدينة وهم يجبرون السكان على التعاون معهم وقد هجر المدينة عدد كبير من سكانها في عملية نزوح مؤلمة، فالمتمكنون هم الذين غادروا إلى محافظات ومدن اخرى، وبقي من لا يستطيع خلق فرصة لاستمرارية العيش في مكان آخر، وتردى كثيراً وضع المدينة الاقتصادية وسامراء مدينة متعددة الموارد اصيب المورد الأول فيها بالشلل التام، وذلك هو مورد السياحة الدينية وكان يقصدها الزوار الاجانب وبخاصة من الايرانيين باعداد كبيرة، مما كان يوفر فرص عمل كثيرة ويحرك رأس المال والبضائع والصناعات المحلية وقد انقطع هؤلاء عن التوافد الى المدينة ولنا ان نقدر مدى تأثير انقطاع أكثر من عشرة آلاف زائر ايراني يومياً على الوضع الاقتصادي في المدينة فقد كانوا يمثلون قوة تسوق كبيرة، هذا فضلاً عن انقطاع الزوار المحليين ايضاً الذين كانوا يقصدون زيارة ضريح الامام علي الهادي، الذي اضطر سدنته الى اقفال ابوابه هذه الأيام، كما لم تعد المدينة بسبب الوضع الامني والحصار المفروض عليها مركزاً لتجارة المواد الغذائية والمنتجات الزراعية التي اشتهرت بها وكذلك الاسماك، ولولا ان سكان الارياف المجاورة مازالوا يقصدون المدينة لبيع منتجاتهم والتسوق منها، لاقفرت المدينة تماماً، فقد تحول نشاط تجارة المنتجات الزراعية بعيداً عن سامراء والضلوعية بنسبة ضئيلة.

الدخول الى سامراء

على مدخل سامراء عبر سدتها الشهيرة تقف سرية حماية من الجيش العراقي وثلة من القوات متعددة الجنسيات ويطلق البعض على هؤلاء، عصابات جلال الطالباني، في اشارة الى انهم من البيش مركه، أو جيش الياور، ذلك ان اغلبهم من قبيلة شمر، ويطلقون عليهم عامة تسمية (الحرس الوثني) ويبيح المسلحون قتل هؤلاء ويهاجمونهم، وقد قتلوا بعضاً منهم في مواجهات انتحارية، وتمنع أو تعرقل عملية الدخول الى المدينة، الاجراءات التي اتخذتها سرية الحماية هذه، وقد منع الدخول الى المدينة يوم الجمعة الأخيرة من رمضان وبالأخص على الاعلاميين في الوقت الذي تصاعدت فيه نشاطات حملة القبضة الحديدية التي تقوم بها القوات الاميركية في المنطقة الغربية من العراق، ويتوقع الاميركان والجيش العراقي تصعيد المواجهات في سامراء ومحيطها في محاولة لتخفيف الضغط عن المنطقة الغربية، كما اغلقت ثلة من الجنود المعبر الاحتياط الذي كان يسلكه السكان والقادمون الى المدينة اسفل الجسر بوساطة الزوارق البخارية مما اضطرنا الى مخاتلة قوة (الايرون هورس) المسؤولة عن حماية المدينة والجيش العراقي المكلف بتطويقها واللجوء الى الطريق الزراعي عبر (بلد) المدينة التي نزحت اليها نشاطات سامراء الاقتصادية فازدهرت (علاويها) الزراعية، ثم عبر بساتين الضلوعية، ومنطقة البوحردان وهي اشد المناطق التهاباً في الضلوعية، وقد اضطررنا لقطعها سيراً على الاقدام، وهنا واجهنا المسلحين الملثمين ببنادقهم الرشاشة وقاذفات الآر بي جي سفن، وحتى حي المعتصم مدخل المدينة من جهة الطريق الزراعي استغرق السير على الاقدام ست ساعات فقد كنت مجبراً على التوقف بين مسافة وأخرى لالتقاط انفاسي فانا اعاني من انسداد كلي في بعض شرايين القلب.

ومن حي المعتصم الى شارع الحولي، ومروراً بحي المعلمين حيث لاتزال ساحته تزدحم بهياكل السيارات المحروقة، وبعض هياكل الشاحنات التي قال لنا السكان ان بعضها تركية الجنسية وانها كانت تعمل في خدمة القوات الاميركية فتنقل لها احتياجاتها اللوجستية والوقود، وهناك شاحنات محروقة ومازالت على هياكلها دعامات اسمنتية كانت تنقلها من الموصل قاصدة بغداد أو المدن الاخرى، وحتى حي المعلمين الى الحي العسكري حيث ضيفنا احد الاصدقاء الذي نحتفظ باسمه حرصاً على امنه، وحين وصلنا داره كان الظلام قد خيم على المدينة التي عمها هدوء مؤثر لحظة الأفطار، فالمدينة كما قلنا ذات هوية دينية وطابعها الاسلامي والثقافي والاجتماعي معروف برغم ان الجانب العشائري غالب ايضاً.

ليل سامراء

لم يستمر الهدوء طويلاً بعد- الافطار- فكنا نسمع بين الحين والاخر اصوات الانفجارات تدوي بعيداً وقريباً ويخبرنا مضيفنا عن مواقعها المحتملة، فهو عسكري سابقاً ومن الطبيعي ان تخلو شوارع المدينة من المارة، وان تتحول الى ساحة قتال بين المسلحين الذين يسيطرون على ازقة وحارات المدينة وبين الجيش اولشرطة العراقية والقوات متعددة الجنسيات التي نصبت سيطرتها على الشوارع العامة خلف دعامات اسمنتية خاصة لتأمين الحماية لعناصر الجيش والشرطة، وكذلك نشر هذه العناصر على سطوح بعض الدوائر الرسمية التي انسحب موظفوها واغلقت ابوابها بسبب الوضع الامني المتردي وتهديدات المسلحين.

وفي الصباح كان مضيفنا يأخذنا بجولة في سيارته الخاصة داخل المدينة التي لم يعد الحصول على الوقود فيها هينا فليس هناك من المجازفين الذين يخاطرون بحياتهم لقيادة (تانكرات) الوقود السائل الى سامراء عبر طريق يحمل مخاطر جمة سواء اقدموا من مصفى بيجي ام من مصفى الدورة، برغم ان المسلحين ادركوا أهمية وصول الوقود الى المدينة فهو يعزز من قدرتهم على الحركة، لكنهم اعتمدوا على قدرتهم الخاصة على جلبه من السوق السوداء وقدرتهم على نقله وادخاله المدينة لاستخداماتهم الخاصة، وبرغم الاجراءات الامنية المشددة فقد سمعنا عدة انفجارات واطلاق رصاص، قال صاحبنا ان مصدره هم عناصر الجيش والشرطة، فهؤلاء يطلقون النار في الهواء للإعلان عن وجودهم ولابعاد السيارات التي تسلك نفس الطرق التي يسلكونها لتسهيل سرعة تنقل دورياتهم التي مازالت لا تعدو ان تكون (بيكات) مكشوفة لا تؤمن الحماية الكاملة لراكبيها، كما ان الأسلحة التي تحملها، أسلحة خفيفة وهي غير محصنة ضد قذائف الار بي جي سفن التي شاهدنا آثار فعلها في هياكل عدد من السيارات المحروقة التي مازالت موجودة على ارصفة بعض شوارع المدينة، وفي بعض ازقة شارع الحولي هياكل سيارات صالون من ماركة B.M.W وماركات المانية اخرى وتساءلنا عن سر استخدام المسلحين السيارات الالمانية في الغالب، فقيل لنا، انها سريعة ومتينة، وهي من (المانفست) فاستخدام السيارات اليابانية وبخاصة- السوبر- يكشف هوية سائقها أو يعرضه للتفتيش دائماً، ذلك ان ضباط الجيش العراقي السابق هم الذين يملكون هذه السيارات، ومع ذلك فان السيارات الحديثة (المنافيست) صارت عرضة للايقاف والتفتيش ايضاً، بل هي اليوم أكثر اثارة للشك.

وحين تساءلنا عن كيفية احراق هذه السيارات في الأزمة الضيقة على وجه الخصوص، اجاب مضيفنا العسكري:

في احدى حملات القوات الاميركية على المدينة، استخدمت طائرات من نوع (A10) التي نسميها صائدة الدبابات، وهي طائرة مقاتلة ثابتة الجناح لكنها تملك قدرة عالية على المناورة، ولهذا تستخدم في الاشتباكات القريبة، وهي قادرة على ضرب سيارة في زقاق ضيق، أو أي هدف مما ثل وادخال صاروخ في شباك من ذلك الزقاق، وقد القت هذه الطائرات اقراصاً حرارية لها مهمتان، الأولى للتشويش على صواريخ ارض جو التي يملك عدداً منها المسلحون، وهذه الصواريخ تتبع المسار الحراري للهدف والمهمة الثانية هي احراق المكان الذي تسقط فيه، حتى لو كان صخرياً ، ولهذا تشاهد آثار الحرائق حتى على جدران بعض البيوت.

وتساءلنا عن سر هدم وتفجير بعض الدور في المدينة، فاخبرنا صاحبنا، انها على نوعين، فهناك دور دمرتها القوات الاميركية على اعتبار انها كانت مأوى للمسلحين وهناك دور دمرها المسلحون متهمين اصحابها بالتعاون مع الاميركان ومنها دار مدير شرطة المدينة ودار وعمارة وفيق السامرائي، ودور عدد من المترجمين المتهمين بالتجسس . ويذكر لنا صاحبنا، ان طائرات الاباتشي لها دورها المؤثر في مطاردة المسلحين داخل المدينة، ومع ذلك فان اعدادهم مازالت غير قليلة، وهم زمر تتبع قادة محليين يتبعون بدورهم تنظيمات وقادة أكثر أهمية ويتوزعون على احياء المدينة التي يستجيب سكانها لطلباتهم بعضهم رهبة، وبعضهم تعاطفاً لاسباب عديدة، وهم في الغالب من عناصر النظام السابق من حزبيين ومن ضباط ومراتب الجيش السابق ومن عناصر الأجهزة الامنية المنحلة، ومن التنظيمات الجهادية الاسلامية.

وترى عدداً كبيراً من اللافتات السود معلقة على جدران البيوت والمساجد تنعى علنا شهداء (المقاومة الشرعية) الذين سقطوا وهم يقاتلون قوات الاحتلال البغيض وعملائها على حد تعبير تلك اللافتات، ومنها عدد علق على جدران مقر هيئة علماء المسلمين- فرع سامراء- القريب من ضريح الامام علي الهادي (ع)، وفي سوق مريم ومنطقة البورحمن.

وهنا يمكن القول ان حقوق الإنسان قد ضاعت بين استهتار الإرهابيين وانتهاكات القوات متعددة الجنسيات.

فالعبوات الناسفة وقذائف الهاون والا ربي جي الإرهابية لا تميز بين فرد واخر مهما كانت صفته، واستخدام القوة المفرطة من قبل القوات متعددة الجنسيات واطلاق النار العشوائي لا يفرق هو الآخر بين فرد بين متلبس وبريء.

وقبل ان نغادر المدينة لذّ لصاحبنا ان يقول لك ان تقرأ صورة اوضاعنا هنا من نتيجة الاستفتاء على الدستور التي كانت ٩٨٪!